

الركون إلى الحياة الدنيا

يخطئ من يركن إلى الحياة الدنيا ويظن أنها تدوم على حال.

إن الأيام تمضي، والآجال تنقضي، والإنسان مع الأيام يتغير من طور إلى طور، ومن حال إلى حال ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَن يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١)

وكثيراً ما كان الرسول ﷺ يذكر أصحابه بهذا التغير والانتقال، حتى لا يخذل الإنسان إلى الأرض، أو يركن إلى زهرة الحياة الدنيا.

ففي خطبته ﷺ بعد أن حمد الله وأثنى عليه قال: «أيها الناس إن لكم معالم فانتوها إلى معالمكم وإن لكم نهاية فانتوها إلى نهايتكم، إن المؤمن بين محافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به، وبين أجل بقي لا يدري ما الله قاض فيه. فليأخذ العبد لنفسه من نفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبهة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت، والذي نفس محمد بيده ما بعد الموت مُسْتَعْتَبٌ، ولا بعد الدنيا دارٌ إلا الجنة أو النار»

وهذا التغير - من حال إلى حال - جدير أن يكون موطن عبدة ومثار خشية. وعبرتنا من تغير الأحوال ومداولة الأيام أن نعرف سنن الله فينا، وأن ندرك أن هذه

(١) غافر : ٦٧.

السنن لا تختلف ﴿ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۚ ﴾
(١)

ونحن إذ نستقبل يوماً من أيامنا لا نستقبله إلا بفراق آخر من آجالنا. ويمكننا أن نصحح أخطاءنا وأن نقوم اعوجاجنا، وأن نتوب عن معاصينا ونحن في سعة، والله يقبل توبة التائب من قريب، ولا يقبلها إذا حضر الموت، وهو حاضر لا محالة ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۚ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ ﴾^(٢)

إذا تلزم التوبة دائماً من قريب دون تأجيل إلى الغد، لأنك لا تدري ماذا يكون في الغد ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ ﴾^(٣)
﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوْءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ ﴾^(٤)

نحن لا نملك الغد، ولا ندري ماذا نكسب فيه. فليأخذ الإنسان من يومه لغده، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبية قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات.

(١) فاطر : من الآية ٤٣ .

(٢) لقمان : من الآية ٣٤ .

(٣) البقرة : من الآية ١٤٨ .

(٤) النساء : ١٧ ، ١٨ .

روى الترمذي عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال: « إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْرِغْ » ^(١)

إنها لحظة الشدة التي يبرأ فيها الإنسان من معاصيه ويُعلن توبته. وقد اقتضت سنة الله ألا ينفع إيمان عند نزول البأس والشدة.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ ^(٢) فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ^ط سُنَّتِ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ^ط وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ^(٣) ﴿

إن فرعون حين أدركه الغرق أعلن إيمانه، وتبرأ من كفره وعصيانه. ولكن هيهات والموت مطبق، والعذاب واقع ﴿ وَجَنُوزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا ^ط حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُوءَ إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ^(٤) ءَالْكَفَرِ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ^(٥) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لِنُكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ^ط وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ^(٦) ﴿

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ ^ط يَوْمَ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنْتْ

(١) رواه الترمذي.

(٢) غافر : ٨٤ ، ٨٥ .

(٣) يونس : ٩٠ - ٩٢ .

مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۖ قُلِ أَنْتَظِرُونَ إِنَّهُ مُنْتَظِرُونَ ﴿١٠٨﴾ (١)



أخي المسلم:

علينا ونحن ندرك سنن الله في خلقه ألا نركن إلى ضعف، ولا نغتر بكثرة. أو نفتن بما أنعم الله به علينا. فإن الركون إلى الضعف استسلام لليأس وقعود عن العمل، والله يأمرنا بالعمل وينهانا عن اليأس والقعود ﴿وَقُلِ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٠٩) (٢)

يقول ﷺ: « يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مَا شِئْتَ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » (٣)

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو أن الأعاجم جاءت بالأعمال وجئنا بلا عمل لكانوا أحق بمحمد منا يوم القيامة.

والإعجاب بالكثرة زهو تفر به العزيمة، ويجلب الإدمار والهزيمة ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۖ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ

(١) الأنعام : ١٠٨ .

(٢) التوبة : ١٠٥ .

(٣) رواد البخاري .

مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ
جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾

نزلت السكينة على النفوس التي اعتمدت على الله وتوكلت عليه دون سواه
وبرئت من حولها وقوتها إلى حول الله وقوته.

فَرَّ مِنْ فَرٍّ بِإِعْجَابِهِ، وَثَبَّتَ مِنْ ثَبَّتَ بِإِيمَانِهِ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى
رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٨﴾

علينا ونحن نعرف سنن الله ألا نركن إلى ضعف أو نغتر بكثرة. وعلينا -
كذلك - ألا نفتن بما أنعم الله به علينا.

إِنْ ثَبَّتَ الْخَطِيءُ فِي الْأَحْوَالِ كُلِّهَا يَرْتَبِطُ بِالْغَايَةِ الَّتِي تَسِيطِرُ عَلَى نَفْسِ الْإِنْسَانِ
وَتَحْكُمُهُ مِنْ دَاخِلِهِ، فَالَّذِينَ يَسِيطِرُ عَلَى نَفْسِهِمْ أَنْ تَمْتَلَأَ أَيْدِيهِمْ بِالْمَتَاعِ، يُحْزَنُ أَنْ
يَتَخَلَّفَ الْمَقْصُودُ أَوْ يُطِئَ الْمَرْغُوبُ. وَتَرَاهُمْ وَلَا ثَبَاتَ فِي سُلُوكِهِمْ، وَلَا طَمَآنِينَةَ فِي
نَفْسِهِمْ، بَلْ يَحْيُونَ فِي سُعَارِ الطَّمَعِ وَالْجَشَعِ حَتَّى يَنْقَطِعَ بِهِمُ الْأَمَلُ عِنْدَ لِقَاءِ الْأَجْلِ.

فِي الْحَدِيثِ الْمَتَّفِقِ عَلَيْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَنْسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا
- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ ذَهَبٍ لِأَحَبِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ
ثَلَاثٌ، وَلَا يَمْلَأُ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ» ﴿٢٩﴾

لا يزال ابن آدم حريصاً على الدنيا حتى يموت ويمتلئ جوفه من تراب قبره.
والآجال تنقضي، والإنسان مع الأيام يتغير من طورٍ إلى طورٍ ومن حالٍ إلى حالٍ.

(١) التوبة : ٢٥، ٢٦.

(٢) التوبة : من الآية ٢٦

(٣) رواه الترمذي.

فلنتأمل جانب الباقيات الصالحات فيما أنعم الله علينا، ولنحذر فتنة النفوس بنعم الله والاطمئنان بها؛ فلا ركون لذهاب ولا اطمئنان لزائل.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْغُورِ ﴿٢١﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٢﴾﴾^(١)

أخي المسلم:

هذا التحديد النير لحقائق الأشياء ييصرنا مقاصدنا، وترتبط عزائمنا. إن سباقاً مسعوراً يقع بين الناس على اللهو، واللعب، والزينة، والتفاخر، والتكاثر في الأموال والأولاد، وهو سباق خاسر منته إلى حطام.

إن التسابق يجب أن يكون على ما يبقى ويدوم، وينتهي إليه أمر الإنسان ويرتبط به فوزه وفلاحه ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢)

هنا يدعونا الله أن نتسابق، وفي تسابقنا لرضوان الله تحقيق لأبَرِّ النتائج من البر، والخير، والمودة، والرحمة.

(١) الحديد : ٢٠، ٢١.

(٢) الحديد: ٢١.

أما التسابق والتنافس على المتاع والزينة، فإنه محقق للضغائن والأحقاد، منسد للروابط، تقوم به الأنانية والجشع، وتقبط معه القيم والأخلاق. ويُستدرج المجتمع إلى الدمار والهلاك.

في الحديث المتفق عليه عن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِي بِجَزِيرَتِهَا، فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتْ الْأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ، فَوَافُوا صَلَاةَ الْفَجْرِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا انْصَرَفَ تَعَرَّضُوا لَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَأَوْهُمْ، ثُمَّ قَالَ: أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ؟ قَالُوا: أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: فَأَبْشُرُوا، وَأَمَلُوا مَا يَسْرُكُمُ، فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسِطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ» ^(١)

وفي الحديث المتفق عليه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، فَقَالَ: إِنِّي مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا » ^(٢)

اللهم إنا نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك والنار.



(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.